وزند للعزم مقدوح، واصيحقق السول، ويهتك بمنوى الاماثل المثول، ويعنى من قبيل هنات القبول بفضله انتهى • ولسان الدين بن الخطيب مقامة عظيمة بديعة وصف بها بلاد الاندلس والعدوة واتى فيها من دلايل براعته بالعجب العجاب وقد تركتها مع كتبي بالمغرب ولم يحضرني منها الان الا قوله في وصف مدينة سبتة ما صورته قلت فمدينة سبتة قال تلك عروس المجتلى، وثنية الصباح الاجلى، تبرجت تبرج العقيلة، ونظرت وجهها من البحر في المراة الصقيلة، واختصت ميزان حسنها بالاعمال الثقيلة، واذا قامت بيض اسوارها، وكان جبل بنيونش تمامة ازهارها، والمنارة منارة انوارها كيف لا يرغب الثغور في جوارها، وتهيم الخواطر بين انجادها واغوارها، الى المينية الفلكية، والركبة الزكية، عبر المنتز وره ولا المكية ذات الوفود الجزل، المعد للازل، والفصول المقصورة على الجد والهزل، والوجه الزهر السحن المصون بها عن المحن، دار الناشية الناشية، والحامية المعزمة للحرب الناشية، والاسطول المرهوب المحذور الالهوب، والسلاح المكتوب المحسوب، والاثار المعروف المنسوب، كرسي الامراء، والاشراف، والوسطى لخامس الاقاليم البسيطة فلا حظ لها في الاعراف، بصرة علوم اللسان، وصنعاء الحلل الحسان، وثمرة امتثال قوله ان الله يامر بالعدل والاحسان، الامينة على الاختزان القويمة المكيال والميزان، محشر انواع الحيتان ومحط قوافل العصير والحرير والكتان، وكفاها السكنى ببنيونش في فصول الازمان، ووجود المساكن النبيهة بارخص الاثمان، والمدفن المرحوم غير المزحوم، وخزانة كتب العلوم، والاثار المنبئة عن اصالة العلوم الا انها فاغرة افواه الجنوب، للغيث المصبوب عرضة للرياح ذات الهبوب، عديمة الحرث فقيرة من الحبوب، ثغر بتنوفية المضاجع بالجنوب، وناهيك بحسنة تعد من الذنوب، فاحوال اهلها رقيقة وتكلفهم ظاهر فيما ظهرت ولينها وعقيقه، واقتصادهم لا تلتبس منه طريقه، واسباب نفقاتهم في تقدير الارزاق مريقه، نعم يمصون البلال مص المحاجم، ويجعلون الخبز في الولايم بعدد الجماجم، وفتنتهم ببلدهم فتنة الواجم بالبشير الهاجم، ورائي الجديب بالمطر الساجم، فلا يفضلون على مدينتهم مدينة، الشك عندي في مكة والمدينة انتهى

وقد سلك في هذه المقامة وصف بلدان المغرب بالسجع والتقفية، ووفاها من المدح وضده الكل توفية، وعكس هذه الطريقة في نفاضة الجراب فوصف فيها الاماكن بكلام مرسل جزل غير مسجع مع كونه اقطع من السيف اذا بان عنه القراب فمن ذلك قوله حين اجرى ذكر مكناسة الزيتون واطلت مدينة مكناسة في مظهر البجد واثلة في حلل الروح مبتسمة عن شنب المياه العذبة سافرة عن جمال المراد قد احكم وضعها الذي اخرج المرعى قيد النهى وقد لكة الحسن فنزلنا بها منزلا لا تستطيع العين ان تخلفه حسنا ووضعا من بلد دارت به المداشر المغلة والتفت بسوره الزياتين المغترقة وراق بخارجه السلطان المستخلص الذي يسمو اليه الطرف ورحب ساحة والتفاف شجرة وبناهه بنية واشراق دهوة ومثلث بازايها الزاوية القدمى المعد للوارد ذات البركة النامية والماذنة السامية والمرافق المتيسرة يصاقبها الخان البديع المنصب الحصين المغلق الخاص بالسابلة والجوابة في الارض يبتغون من فضل الله تقابلها غربا الزاوية الحديثة المرينية بروق الشبيبة وفرية البجد والانفساح وتفنن الاحتفال الى ان قال وبداخلها مدارس ثلاث لبث العلم كلفت بها الملوك الجلة الهم واتخذها التجيد فجاءت فايقة الحسن ماشيت من ابواب نحاسية وبرك فياضة تقذف فيها امها في الماء العذاق اسد يرة وفيها خزاين الكتب والجراية الدارة على العلماء والمتعلمين وتفضل هذه المدينة كثيرا من لداتها بصحة الهوا وتبحر اصناف الفواكه وتعيير الخزاين ومداومة الرجوار تراتها سليما من الفساد مساقي من العفن اذ تقام ساحات منازلها على ما يباع على اطباق الالاف من الاقوات تتناقلها المواريث ويصحبها التمحيص وتنجابن حها الارض ومحاسن هذه البلدة المباركة جمة قال ابن جدون من اهلها ومن دره

ان تفتخر فاس بما في طيها، وبانها في زيها احسنا ٥ يكفيك من مكناسة ارجاؤها، والاطيبان هواؤها والما

ويسامتها ناقا جبل زرهون المنبجس العيون الطاهر البركة المتزاحم العمران الكثير الزياتين والاشجار قد جلله سكرا ورزقا حسنا فهو عنصر الخير ومادة المجبى وفي المدينة دور نبيهة وبنى اصيلة والله سبحانه ولى من اشتملت عليه بقدرته وفيها اقول

بالحسن من مكناسة الزيتون • قد صح عذرا الناظر المفتون
فضل الهوا وصحة الماء الذي • يجري بها وسلامة المخزون
تحت عليها كل عين ثرة • للمزن هامية الغمام هتون
فاحمر خد الورد بين اباطح • وافتر ثغر الزهر فوق غصون
ولقد كفاها شاهدا مهما ادعت • قصب السباق الترب من زرهون
جبل تفنا حكمة البروق بحقه • فبكت عليه عيونه بعيون
وكانما هو بري فاقد • في لوحه والتين والزيتون
حيث من بلد خصيب ارضه • مثوى امان ومناخ اشون
وصنعت هلك من الاله عناية • تكسوك ثوبي امنة وسكون

انتهى وقد وصفها في مقامة البلدان على منوال السجع فقال مكناسة مدينة اصيلة، وشعب للمحاسن وفصيلة، فضلها الله سبحانه ورعاها، واخرج ماءها ومرعاها بجانبها مربع، وخيرها سربع، ووضعها له في فتنة الفضايل تفريع، اعتدل فيها الزمان، وانسدل الامان، وفاقت الفواكه فواكهها ولاسيما الرمان، وحفظ اقواتها الاختزان، ولطفت فيها الاواني والكيزان، ودنا من الحضرة جوارها فكثر قصادها من الوزراء او زوارها، وبها المدارس والفقهاء، ولقصبتها الابهة والمقاصير والابهاء انتهى ويعبر بالحضرة مدينة فاس المحروسة لانها اذ ذاك كرسي الخلافة، ومكناسة مقر الوزارة واهل المغرب يعبرون عن المدينة التي فيها كرسي الخلافة بالحضرة قلت دخلت مكناسة هذه مرارا عديدة وقد ابلى الدهر محاسنها التي كانت في زمان لسان الدين الخطيب جديدة، واستولى عليها الخراب وتكدر منها بالفتن الشراب

وبات في ظاهرها الاعراب، وفي باطنها سماسرة الفتن الفايقة من كثير من الاراب، حتى صار اهلها حزبين ولبس كثير من اهلها ثياب البعد والبين، والله يجبر حالها، ويعقب بالخصب امحالها، ورحم الله ابن جابر حيث قال

لا تنكر الحسن من مكناسة • فالحسن لم يبرح بها معروفا
ولئن محت ايدي الزمان رسومها • فلربما ابقت هناك حروفا

على ان ضواحيها كانت في زمان لسان الدين ماوى للمحاربين واللصوص ومثوى الاعراب الذين اعضل داوهم باقطار المغرب على العموم والخصوص ولذلك يقول لسان الدين رحمه الله

مكناسة حشرت بها زمر العدى • فذى يريد فيه الف مريد
من واصل للجوع لا لرياضة • او لابس للصوف غير مريد
فاذا سلكت طريقها متصوفا • فانو السلوك بها على التجريد

ومما اشار اليه رحمه الله فيما سبق من ذكر الزاوية القدمى والجديدة اشارة الى زاويتين بناهما السلطان ابو الحسن المريني الكثير الاثار بالمغرب الاقصى والاوسط والاندلس وكان بنى الزاوية القدمى في زمان ابيه السلطان ابي سعيد والجديدة حين تولى الخلافة وله في هذه المدينة غير الزاويتين المذكورتين من اثار جميلة من القناطر والسقايات وغيرها ومن اجل ما اثره بها المدرسة الجديدة وكان قدم للنظر على بنائها قاضيه على المدينة المذكورة ولما اخبر السلطان بتمام بنائها جاء اليها من فاس ليراها فقعد على كرسي من كراسي الوضوء حول صهريجها بالرسوم المتضمنة للتنفيذات اللازمة فيها ففرقها في الصهريج قبل ان يطالع فيها وانشد

لا باس بالغالي اذا قيل حسن • ليس لما قرت به العين ثمن

وهذا السلطان ابو الحسن اشهر ملوك بني مرين وابعدهم صيتا وكان قد ملك المغرب باسره وبعض الاندلس وامتد ملكه الى طرابلس الغرب ثم حصلت له الهزيمة الشنعاء قرب القيروان حين قاتل اعراب افريقية فغدر به بنو عبد الواد الذين اخذ من يدهم ملك تلمسان وانتهزوا الفرصة فيه وهربوا الى الاعراب عند المصافة فاختل مصافه وهزم اقبح هزيمة ورجع الى تونس مغلولا وركب البحر في اساطيله وكانت نحو الستماية من السفن فقضى الله ان غرقت جميعا ونجا على لوح وهلك من كان معه من اعلام المغرب وهم نحو اربعماية عالم منهم السطي شارح الحوفي وابن الصباغ الذي املى في مجلس درسه بمكناسة على حديث يا ابا عمير ما فعل النغير اربعماية فايدة قال الاستاذ ابو عبد الله ابن غازي رحمه الله حدثني بعض اعيان الاصحاب انه بلغه ان الفقيه ابن الصباغ المذكور سمع بمنصورة تلمسان المحروسة ينشد كالمعاتب لنفسه

ياقلب كيف وقعت في اشراكهم • ولقد عهدتك تحذر الاشراكا
ارضى بذل في هوى وصبابة • هذا لعمر الله قد اشقاكا

ومات رحمه الله غريقا في اسطول السلطان ابي الحسن المريني على ساحل تدلس هو والفقيه السطي والاستاذ الزواوي وغير واحد في نكبة السلطان ابي الحسن المعروفة ومن نظم ابن الصباغ المذكور في العلاقات المعتبرة في المجاز وفي المرجحات له قوله رحمه الله تعالى ٥

يا سايلا لاحصر العلاقات التي • وضع المجاز بها يسوغ ويجمل
خذها مرتبة وكل مقابل • حكم المقابل فيه حقا يحمل
عن ذي ملزوم وملزوم لازم • وكذا بعلته ومعلول معلل
وعن العموم يستعار مخصص • وكذاك عن جزء ينوب المكمل
وعن المحل ينوب ما قد حله • والحذف للتخفيف مما يسهل
وعن المضاف اليه ناب مضافه • والضد عن اضداده مستعمل
والشبه في صفة تبين وصورة • ومن المقيد مطلق قد يبدل
والشيء يسمى باسم ما قد كانه • وكذاك يسمى بالبديل المبدل
وضع المجاور في مكانه جاره • وبهذه حكم التعاكس يكمل
واجعل مكان الشيء آلته وجيء • بمنكر قصد العموم فيحصل
ومعرف عن مطلق وبه انتهت • ولجلها حكم التداخل يشمل
وبكثرة وبلاغة ولزومه • حقيقة رجحانه يتحصل

انتهى كلام شيخ شيوخ شيوخنا الامام ابي عبد الله محمد بن غازي رحمه الله تعالى وقد حكى ابن غازي المذكور عن شيخه ابن جابر ان ابن الصباغ المذكور اعترض على القاضي ابن عبد السلام التونسي لما لقي ابن الصباغ بتونس اعترض عليه ابن الصباغ اربع عشرة مسألة لم ينفصل عن واحدة منها بل اقر بالخطأ فيها اذ ليس ينبغي الانصاف بالكمال الا الازكى الكبير المتعال انتهى وذكر الشيخ ابو عبد الله الابي رحمه الله في شرح مسلم عند تكلمه على احاديث العين ما معناه ان رجلا كان بتلك الديار مشهورا باصابة العين فسال منه بعض الخونة السلطان ابي الحسن ان يصيب اساطيله بالعين وكانت كثيرة نحو الستماية فنظر اليها الرجل العاين فكان غرقها بقدرة الله الذي يفعل ما يشاء، ونجا السلطان براسه وجرت عليه محن واستولى ولده السلطان ابو عنان فارس على ملكه وكان خلفه بتلمسان ولم يزل في اضطراب حتى ذهب الى سجلماسة ومنها الى جبل هنتاتة قرب مراكش فذهب الى حربه ابنه السلطان ابو عنان فارس بجيوشه واناخ على الجبل بكلكله ولم يخفر اهل هنتاتة جواره لديهم واكبرهم عامر بن محمد واخوه وصبروا على الحصار وخراب الديار وحرق الاماكن حتى مات هنالك رحمه الله ونقل بعد الى شالة سلا مدفن اسلافه ومن اراد الوقوف على اخباره فعليه بكتاب الخطيب ابن مرزوق الذي الفه فيه وسماه المسند الصحيح الحسن من احاديث السلطان ابي الحسن ولما ذهب لسان الدين ابن الخطيب الى العالم ابن محمد بجبله المشهور زار محل وفاة السلطان المذكور وقد الم بذكر ذلك في نفاضة الجراب اذ قال وشاهدت بجبل هنتاتة محل وفاة السلطان المقدس امير المسلمين ابي الحسن رحمه الله حيث اماتت طارقة الاجل الذي فصل الخطة واصمت الدعوى ورفع المنازعة وعاينته مرتفعا عن الابتذال بالسكنى مخ باعصاب مقصودا بالابتهال والدعاء فلم ابرح يوم زيارة محل وفاته ان قلت

باحسنها من اربع وديار • اضحت لباغي الامن دار قرار
وجبال عز لا تذل انوفها • الا لعز الواحد القهار
ومقر توحيد واس خلافة • اثارها تنبي عن الاخبار

Copyright King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)